صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري عند أدونيس

قراءة في الجزء الرابع من كتاب:

الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع عند العرب

رشيد مساوي

طالب دكتوراه – تخصص: اللغة العربية وآدابها

جامعة القاضي عياض – مراكش

المغرب

الملخص:

يتناول هذا البحث قراءةً تحليليةً في الجزء الرابع من كتاب أدونيس)علي أحمد سعيد" (الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع عند العرب"، المعنون بـ"صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري"، ويسعى إلى استجلاء مفهوم الحداثة في الفكر الأدونيسي من حيث مرجعياته الغربية والعربية على حدٍّ سواء، وذلك من خلال تتبع المحاور الكبرى التي اشتغل عليها الكتاب :ثنائية الثابت والمتحول، وجدلية الاتباع ،والإبداع، ومسألة الانتقال من الخطابة إلى الكتابة .كما يرصد البحث أبرز النماذج الشعرية التي وظّفها أدونيس أدلةً على حداثته العربية ويقف عند إشكاليتَي الارتداد والتنميط اللتين رآهما سمةً مميزة لعصر النهضة العربية .ويخلص البحث إلى أن مصطلح "الحداثة "عند أدونيس مصطلح مركّب تتجاذبه روافد فكرية غربية وأصول تراثية عربية إسلامية في آنٍ معاً

Adonis's Modernity Shock and the Poetic Heritage: A Reading of Volume Four of Al-Thabit wal-Mutahawwil

Abstract

This paper presents an analytical reading of the fourth volume of Adonis's (Ali Ahmad Said) major work "Al-Thabit wal-Mutahawwil: A Study of Tradition and Creativity in Arab Culture," subtitled "The Shock of Modernity and the Authority of Poetic Heritage." The study aims to illuminate the concept of modernity in Adunisian thought—tracing its Western and Arab intellectual references—through an examination of the work's key axes: the binary of the fixed and the changeable, the dialectic of tradition and creativity, and the transition from orality to writing. The paper also identifies the key poetic models that Adonis deployed as evidence of Arab modernity, and examines his critique of the Renaissance period as characterized by regression and stereotyping. The study concludes that Adonis's concept of "modernity" is a complex term shaped simultaneously by Western philosophical currents and classical Islamic-Arab heritage.

مقدمة

تعدّ القراءة فعلاً حضارياً خلاّقاً، يسعى إلى كشف مضامين النصوص ودلالاتها وأبعادها، كما أنها ترمي إلى جعل المبدع في ميزان النقد ووضع القارئ في كفّةٍ تُعادل كفّته .وقد تعددت مناهج القراءة وتنوعت اتجاهاتها، فلا قراءة نهائية للنص مادامت النصوص مفتوحةً على القراء .ولا مناص للقارئ الناقد من أن يقترب من المبدع الأول ذاته، ويتعرف إلى خلفياته الثقافية والفكرية التي وجّهت كتابته النقدية والإبداعية معاً، وذاك هو الحال حين تُقارَب أعمال أدونيس النقدية والشعرية.[1]

يصعب على القارئ فهم أدونيس أثناء تصفّح أعماله، خاصة تلك المتعلقة بالشعر ونقده، لأنه شخصية مركّبة ومتعددة الأوجه :أدونيس الناقد القارئ، وأدونيس الناثر المفكر، وأدونيس الشاعر، وقراءته تجربة خاصة تستمتع بها قبل الاستمتاع بالعمل نفسه، لأن طريقته في الاقتراب من النصوص إبداع في حدّ ذاتها؛ إذ "يصعب تحديد منهجه والقبض عليه بصورة متكاملة لأنه يكتسي صبغة شعرية متناقضة، ولكونه يسعى دوماً إلى الجديد والتحول والتجاوز".

تكتسي الحداثة مكانةً محوريةً في الفكر الأدونيسي؛ فهي مصطلح شائك يحمل تأويلاتٍ كثيرةً ومتنوعة تصل إلى حدّ التناقض، وهو ما جعلها محلَّ تضاربات ومواجهات .وقد جعل أدونيس من الحداثة راية لمشروعه الكتابي في كتابه الأهم "الثابت والمتحول "الذي يُعدّ أهمّ مرجع له في مشروعه الحداثي.[2]

وتأتي هذه الدراسة لتتوقف عند الجزء الرابع من هذا الكتاب الموسوم بـ"صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري"، مستجليةً المحاور الكبرى التي اشتغل عليها أدونيس، ومتتبّعةً الروافد الفكرية التي أسهمت في صياغة مفهومه للحداثة، عبر منهج تحليلي نقدي يستند إلى النصوص الأصلية والدراسات المرجعية ذات الصلة

أولاً :قراءة في العنوان – ثنائية الثابت والمتحول

العنوان هو العتبة الأولى للولوج إلى مفاد النص ومغزاه، وقد أصبح ضرورة ملحّة ومطلباً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه في البناء العام للنصوص، إذ يفتح شهيةَ القارئ للقراءة من خلال تراكم التساؤلات التي يثيرها ولا يجد لها إجابات إلا مع نهاية العمل

والثابت هو الاستقرار على شيء والتحكّم فيه، والتحوّل هو الانتقال من حالٍ إلى حال .فيُصبح الاتباع هو الثبات أي الشعر القديم الجاهلي، والإبداع هو المتحوّل أي الشعر العباسي وما بعده؛ وهذا ما يؤكده الدكتور محمد بنيس بقوله" :يميّز أدونيس في أطروحته الجامعية في الثابت والمتحول، كما في تنظيراته اللاحقة، بين الشعر الجاهلي والشعر العباسي باستعمال مصطلحين صريحين هما الثابت والمتحول ثم الخطابة والكتابة".[3]

ويرى أدونيس أن هذه الثنائية قضية ذات أهمية كبرى لا بد للناقد والشاعر المعاصرَين من مناقشتها، يقول" :إن القضية الأساسية في دراسة الثقافة العربية وفي التراث العربي بعامة هي في فهم العلاقة بين رؤيا الثبات ورؤيا التحوّل، أو طبيعة الصراع بين منحى الاتباع ومنحى الابتداع".[4]

---

[1].الشعرية عند أدونيس بين المفهوم والتجريب، سعيد بكير، رسالة دكتوراه، جامعة السانيا – وهران، 2013

[2].الخطاب النقدي عند أدونيس قراءة الشعر أنموذجاً، عصام العسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص19

[3].الشعر العربي الحديث)بنياته وإبداالته، مساءلة الحداثة(، محمد بنيس، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1991، ص44

[4].الثابت والمتحول، أدونيس، ج1 الأصول، دار العودة، لبنان، ط4، 1983، ص35

،أما ثنائية الإبداع والاتباع التي وظّفها أدونيس فقد قصد بها أن الإبداع يرتبط بالحداثة التي تعني الخلق والتجديد والخروج عن المألوف بينما يعني الاتباع المحاكاةَ والسير على منوال القدماء .وإذا جمعنا بين الثابت والمتحول من جهة، والإبداع والاتباع من جهة أخرى، أفضى ذلك إلى ما يُسمّيه أدونيس "صدمة الحداثة".[5]

ثانياً :مفهوم الحداثة عند أدونيس

ظلّ مفهوم الحداثة في الساحة العربية ساكناً، ولم يعرف تحركاً إلا مع الفكر النهضوي الذي دبّ في الأمة العربية بمجيء حملة نابليون على مصر سنة 1798م، فكان لهذه الحملة تأثير بالغ في إطلاع المصريين على طرق حديثة في الإدارة والسياسة والاقتصاد والمطبعة والصحافة ومن هنا بدأ الوعي بضرورة بناء حضارة جديدة وتأسيس فكر يساير التيار الثقافي الوافد

فظهرت جماعة من المثقفين الذين أتقنوا لغة الغرب وأدبه، من أمثال رفاعة الطهطاوي وطه حسين وسواهم، ثم جاءت مدرسة الإحياء بقيادة محمود سامي البارودي لتُخرج الأدب والشعر من ظلمات عصور الانحطاط والجمود، فأصبحت نموذجاً يُقتدى به لمن جاء بعده من أجيال التجديد

أما مفهوم الحداثة عند أدونيس فإنه لا يرتبط بزمن معين؛ فالحداثة عنده لا زمان لها، وإذا كان البعض يظنها تنطلق من اللحظة الراهنة والأشياء المعاصرة، فهي في مفهومه تنطلق من الماضي وتمثّل استمرارية للإبداع .يقول في هذا الصدد" :إن الحداثة في هذا المستوى تسبح في الإبداعات العربية الماضية، وحين نقول بتجاوز الماضي فإننا نعني تحديداً تجاوزاً لتصورات معينة للماضي أو لفهم معين أو لبنى تعبيرية معينة ولا يعني إطلاقاً أننا ننفكّ وننفصل عنه".[6]

ويرى أدونيس أن مصطلحَي "الحداثة "و"المحدَث "انبثقا من المعجم الديني، وأن الإبداع هو الشرط الأساسي للحداثة؛ إذ يقول" :جوهر الحداثة أن يكون رؤية إبداعية بالمعنى الشامل ...غير أن الإبداع لا عمر له، بذلك ليست كل حداثة إبداعاً، أما الإبداع فهو أبديّ حديث".[7]

انطلاقاً من هذا التصور يؤكد أدونيس أن الحداثة ليست قطيعة مع التراث، بل هي خلق جديد يتناسب وحياة الشاعر وتطوّرها؛ فالشاعر عنده من كانت له رؤية تميّزه عمّن سبقه من خلال خلقه لنوع جديد خاص به، وهو ما استدلّ عليه بشعر بشار بن برد وأبي تمام وأبي نواس في الشعر، والمبرد وابن قتيبة وابن جني في النقد.[8]

ثالثاً :المرجعيات الفكرية لمصطلح الحداثة عند أدونيس

1. المرجعية الغربية

واليوناني (Nietzsche) لا يُنكر أدونيس اتصاله بالثقافة الغربية؛ فقد تأثر بالتجارب الشعرية الغربية وبالفيلسوف الألماني نيتشه وأدرك بعد اطلاعه على التقدم الذي عرفته المجتمعات الغربية مدى أهمية فكر الحداثة وخطورته في بناء الحضارة ،(Heraclitus) هيراقليطس والتحرر من قيود التخلف .وقد قامت الحداثة الغربية على فكرة التمرد الشامل على التقليد وعلى قيم الكنيسة وعلى كل ما يرمز إلى ممارسات القرون الوسطى، وتأسست على تمجيد الإنسان والإيمان بقدرته على التغيير.[9]

[5].أدونيس، الثابت والمتحول، ج1 الأصول، المرجع نفسه

[6].كلام البدايات، أدونيس، دار الآداب، بيروت لبنان، دط، دت، ص144

[7].الشعرية العربية، أدونيس، ص112

[8].فاتحة لنهايات القرن، أدونيس، دار العودة، ط1، بيروت، 1980

[9].حوار مع أدونيس، الطفولة، الشعر، المنفى، صقر أبو فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2000

وفي ضوء هذا التأثر يجعل أدونيس من الثورة على التقاليد والنظام الثقافي السائد السبيلَ الوحيد لكل تجديد أو تحول، يقول" :تتضمّن الحداثة الرفضَ والتمرّد من حيث إنها تتخلّى عن التقليد ومفهومات الأصول والأسس والجذور والمعايير الثابتة ."وبهذا يكون قد جعل من معيار الثورة على السائد، الذي تميّزت به الحداثة الغربية، مقياساً مركزياً في تحديد نماذج الحداثة التي انتقاها من التراث العربي.[10]

2. المرجعية العربية الإسلامية

يذهب أدونيس إلى أن النص القرآني قد أسّس لحداثة عربية بما تضمّنه من إعجاز لغوي، وأنه أرسى تلك النقلة النوعية من الثقافة الشفوية إلى ثقافة الكتابة؛ يقول" :إن جذور الحداثة الشعرية العربية، بخاصة، والحداثة الكتابية، بعامة، كامنةٌ في النص القرآني من حيث إن الشعرية الشفوية الجاهلية تمثّل القِدَم الشعري، وإن الدراسات القرآنية وضعت أُسساً نقدية جديدة لدراسة النص، بل ابتكرت علماً للجمال جديداً ممهِّدةً بذلك لنشوء شعرية عربية جديدة".[11]

وفي مجال الشعر يرى أدونيس أن امرأ القيس في أغلب أشعاره أكثر حداثةً من شعر شوقي كله؛ لأن الأول كان يعبّر عن زمانه في حين عاش الثاني زمن غيره .ومن أبرز النماذج التي انتقاها أدونيس :بشار بن برد وأبو نواس وأبو تمام، إذ يقول" :كان بشار بن برد)ت168هـ/785م (على صعيد الكتابة الشعرية الوجهَ الأول الأكثر بروزاً لهذه الحداثة ."أما حداثة أبي تمام فارتكزت على ما يسمّيه أدونيس الخلق لا على مثال سابق ."أما في الفكر الفلسفي فيستشهد بابن رشد وابن الراوندي والرازي وجابر بن حيان"[12]

رابعاً :قراءة في مضامين كتاب صدمة الحداثة

،جاء كتاب "صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري "في حوالي ثلاثمئة وثلاث عشرة)313 (صفحة، مقسّمة إلى ستة عشر قسماً كلّ قسم مستقل بذاته .وقد صدّره أدونيس بمقدمة أوضح فيها منهجه ومراميه قائلاً" :لقد آثرت في هذا الكتاب من الثابت والمتحول أن أفرد للشعر جزءاً خاصاً وأن أتناول الفكرة والثقافة بشكل عام في جزء لاحق، وآثرت أن لا أدرس إلا الظواهر الشعرية التي رأيت أنها تفيدنا في إضاءة ما أذهب إليه في مسألة الحداثة الشعرية".[13]

أ .من القِدَم إلى الحداثة :العرب والغرب

في قسمه الأول يُعيد أدونيس قراءة التاريخ والأدب والفكر، والعلاقة بين العرب والغرب على ضوء الحداثة .ويُقدّم مفهومين أساسيين ومركزيين هما الخطابة والكتابة، إذ يقول" :لا نقدر أن نُحيط بنشأة الحداثة في المجتمع العربي إلا إذا أدركنا معنى انتقال العرب من الخطابة إلى الكتابة ."فالخطابة في تعريفه ذات طبيعة شفهية تستلزم وجود خطيب وجمهور تجمع بينهم علاقة مباشرة هدفها الإقناع والتأثير.[14]

أما الكتابة فيُشير أدونيس إلى أنها ظهرت مع نهاية الخطابة في الشعر والنثر، وهذه النهاية تولّدت مع ظهور القرآن الكريم الذي يُعدّ اللبنة الأولى لنهاية الارتجال والبداهة ،.وقد حدّد لها عدة تعريفات متكاملة :فالكتابة خلق وإبداع، والكتابة لا متناهية شكلاً وموضوعاً .والكتابة علم بالمعلوم والمجهول، والكتابة إنشاء على غير مثال

ب .رواد النهضة وتجليات الحداثة

في القسم الثاني يتناول أدونيس رواد النهضة العربية بنظرة مغايرة لما ألفه النقاد والشعراء العرب، فيُقدّم البارودي باعتباره "مقلّداً متقناً "لا مجدّداً .ويُشير إلى أن امرأ القيس أكثر حداثةً من البارودي لأن الجاهلي كان يعيش زمانه في حين عاش الثاني زمن غيره .ويعتبر الرصافي أكثر

---

[10].نظرية المصطلح النقدي، عزت محمد جاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002، ص53

[11].الشعرية العربية، أدونيس، ص50-51

[12].الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، أدونيس، دار الساقي

[13].الثابت والمتحول)بحث في الاتباع والإبداع عند العرب(، الجزء الرابع :صدمة الحداثة والموروث الشعري، أدونيس)علي أحمد سعيد(، دار الساقي،)المقدمة(

[14].استراتيجية الشعرية والرؤيا الشعرية عند أدونيس – دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، بشير تاوريرت، مكتبة اقرأ، قسطنطينة، دار الفجر، 2006، ص15

حداثةً وأعمق التزاماً .أما جماعة الديوان فيربطها بالحداثة الذاتية، ويُقدّم شعر شكري على شريكيه العقاد والمازني .وأما جبران فيعتبره "طفرة ثاقبة "في مسار الشعر العربي وشاعراً رؤيوياً وصاحب هدم وبناء

ج .الارتداد والتنميط وصدمة الحداثة

،في القسم الثالث يطرح أدونيس إشكالية الارتداد والتنميط؛ ويصف عصر النهضة بأنه "عصر تنميط وارتداد للأسئلة التقليدية وأجوبتها وعصر لم يطرح – باستثناء جبران – على مستوى الأنظمة الثقافية أيَّ سؤال جديد حول الإبداع الفني"، وأنه عصر استعادة وتكرار لا عصر إنتاج يكتشف ويضيف.[15]

أما مصطلح "صدمة الحداثة "نفسه فيكتسي أبعاداً دلالية متعددة؛ فكلمة "صدمة "تُقابلها في الكتابات النقدية مفردات كـ"مأزق "عند غالي شكري، و"مشكلة "عند نبيل سليمان، و"أزمة "عند محمد بنيس .وتتجلّى هذه الصدمة في ما أحدثه الاصطدام بالحداثة الأوروبية الوافدة على الساحة العربية من تحولات عميقة في جميع المجالات خصوصاً الأدبية.

خاتمة

خلصنا في ختام هذه الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً :يُعدّ مفهوم الحداثة المفهومَ المركزيَّ والمحوري في الفكر الأدونيسي، بل يمكن القول إن هذا الفكر بدون الحداثة يفقد الكثير من أهميته؛ فكل مواقف أدونيس وآرائه وإبداعاته تسيطر عليها وتوجّهها هذه الحداثة

ثانياً :مفهوم الحداثة عند أدونيس مصطلح مركّب تتجاذبه روافد فكرية غربية من جهة – بخاصة فلسفة نيتشه وهيراقليطس – وأصول تراثية عربية إسلامية من جهة أخرى، وهو ما يجعله في موقع تناقض وتوتر داخلي لا يخفى على الدارسين

ثالثاً :تكمن صدمة الحداثة عند أدونيس فيما جاءت به أوروبا للعالم العربي وخضوعه لهيمنتها منذ عصر النهضة مادياً وفكرياً؛ فهي صدمة الواقع قبل أن تكون صدمة المصطلح

رابعاً :لا يمكن إعطاء تعريف جامع مانع للحداثة إذ ستبقى متجددة بتعدد القراءات واختلافها عبر الأزمنة، وسيظل القلق سيّداً والسؤال صاحباً، على حدّ تعبير محمد بنيس

خامساً :مشروع "الكتابة الجديدة "الذي تُوّج به الفكر الأدونيسي لا يزال يحتاج إلى مزيد من رحلات الاكتشاف العلمي الرصين الذي يجمع بين الإنصاف المنهجي والرؤية النقدية الموضوعية

[15].زمن الشعر، علي أحمد سعيد)أدونيس(، دار العودة، بيروت، ط1، 1978، ص127

المصادر والمراجع

- أدونيس)علي أحمد سعيد :(الثابت والمتحول)بحث في الاتباع والإبداع عند العرب(، الجزء الرابع :صدمة الحداثة والموروث الشعري دار الساقي
- أدونيس :الثابت والمتحول، ج1 :الأصول، دار العودة، لبنان، ط4، 1983
- أدونيس :الشعرية العربية، دار الآداب، ط1، بيروت، 1985
- أدونيس :زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط1، 1978
- أدونيس :فاتحة لنهايات القرن، دار العودة، ط1، بيروت، 1980
- أدونيس :كلام البدايات، دار الآداب، بيروت،)د.ط(،)د.ت(
- أدونيس :مقدمة للشعر العربي، دار العودة، ط4، بيروت، 1983
- تاوريرت، بشير :استراتيجية الشعرية والرؤيا الشعرية عند أدونيس – دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، مكتبة اقرأ، قسطنطينة دار الفجر، 2006
- بكير، سعيد :الشعرية عند أدونيس بين المفهوم والتجريب، رسالة دكتوراه، جامعة السانيا – وهران، 2013
- بنيس، محمد :الشعر العربي الحديث)بنياته وإبداالته، مساءلة الحداثة(، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1991
- جاد، عزت محمد :نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002
- الخرابشة، علي قاسم محمد :جدلية التراث بين صالح عبد الصبور وأدونيس – النظرية والتطبيق، مجلة النص، الجزائر، العدد الثامن مارس 2008
- سليمان، نبيل :مساهمة في النقد الأدبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983
- العسل، عصام :الخطاب النقدي عند أدونيس قراءة الشعر أنموذجاً، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007
- اليافي، نعيم :الشعر العربي الحديث، دار المجد، ط2 منقحة ومزيدة، دمشق، 1986
- يحياوي، رشيد :الشعر العربي الحديث دراسة في المنجز النصي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1998
- أبو فخر، صقر :حوار مع أدونيس :الطفولة، الشعر، المنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2000